الأحد ١٠ . ٨ . ٠٨

آلية التعامل مع الغرب

ورقة عمل بقلم ناهض منير الريس

تمهيد

إن صورة الغرب في الأذهان في بلادنا العربية والإسلامية في الزمن الراهن صورة سلبية انغلاقية تختلط ببعض الاعتبارات الإيجابية ذات الطابع العملي البراجماتي . ولذا فإن التعامل مع الغرب بالتالي تعامل ملتبس ، تشده من ناحية أولى أحكام الضرورة وطبيعة عصرنا الراهن الذي أصبح العالم فيه من إحدى النواحي قرية صغيرة لا ينفصل بعضها عن بعض ، ولا يستغني بعضها عن بعض ، جراء ثورة المواصلات والاتصالات وعولمة السياسة والثقافة ، ويباعده من ناحية أخرى إرث تاريخي طويل من العداء العقيدي والمصلحي والنفسي .

هناك أولا خلفية تاريخية متغلغلة في تاريخنا وتاريخ الغرب على حد سواء منذ الحروب الصليبية التي لبست لباس الدين واحتلت سواحل بلاد الشام زاحفة من الشمال نحو الجنوب بدءا من عام ١٠٩٧ م . وكان احتلالها بيت المقدس في صيف عام ١٠٩٩ م مذبحة مروعة ذكر المؤرخ المسلم ابن الأثير أن الفرنجة " قتلوا في المسجد الأقصى سبعين ألفا من بينهم عشرة آلاف عالم وفقيه " . وتحدث عنها مؤرخ فرنسي مرافق للحملة بقوله : " كانت القدم تغوص حتى الكاحل في دماء المسلمين ". إلى أن صفى السلطان المملوكي الأشرف خليل آخر معاقل الصليبيين في صيدا وصور وحيفا عام ١٢٩١ م بعد قرنين كاملين على وجود دولة الفرنجة .

وهناك خلفية تاريخية أخرى أحدث عهدا ، وهي الصراع الحربي الطويل بين دولة الخلافة العثمانية وبين أوروبا منذ عهد عثمان الأول وتشكيل الحلف الصليبي لمحاربة مؤسس الدولة العثمانية عام ١٣٠١ م والتي توالت تباعا على مدار ستمائة عام حتى الحرب العالمية الأولى التي انتهت بهزيمة دولة الخلافة عام ١٩١٨ م بعدما جرى اجتماع بين الحلفاء لتقسيم العالم العربي بين بريطانيا وفرنسا في اتفاقية سايكس . بيكو عام
١٩١٦ م . وبموجب تلك الاتفاقية وضعت البلاد العربية تحت الوصاية والانتداب والحماية لصالح أطراف الاتفاقية .

وبذلك تولدت من ذلك الحين خلفية تاريخية ذات طابع آخر سلبي ممتدة في حاضر منطقتنا العربية والإسلامية .

لقد كان الانتداب البريطاني على فلسطين هو العامل الأساسي في تسهيل إقامة إسرائيل على الرقعة الفلسطينية في قلب العالم العربي ، وتشريد الشعب العربي الفلسطيني ، وجعل الدولة الصهيونية حارسة لمصالح الغرب المتمثلة في نهب الثروات الخام بموجب عقود إذعان ظالمة والمتمثلة أيضا في احتكار أسواق المنطقة للتجارة والبنوك الغربية . وهكذا انزرعت في المنطقة مع زرع إسرائيل أسباب صراع متجدد في هذه المنطقة من العالم ، نظرا لاستثارة الذكريات السلبية ولتحدي النزعة الوطنية والقومية والدينية لدى أهالي البلاد .

وتستمر دواعي العداء والحفيظة في العلاقة بين الغرب وبين هذه المنطقة ، بل وتتفاقم تفاقما مطردا ، بسبب عنصرين من أخطر عناصر العداء :

العنصر الأول . استخدام إسرائيل والحركة الصهيونية وآلتها الدعائية العقيدية إثارة النوازع العدائية لدى البروتستانت الإنجيليين في الولايات المتحدة خاصة ضد المسلمين بحسبانهم عقبة في وجه عودة المسيح التي

لن تتم بزعمهم إلا حين يجتمع اليهود كلهم في فلسطين . ومعلوم أن هؤلاء قد نشروا . عقيديا وسياسيا . أفكار كنيسة الأحد المتصهينة وأتباعها الذين بلغ تعدادهم ستين مليون نسمة تجري تعبئتهم بالحقد على الإسلام والمسلمين وحشدهم لتأييد إسرائيل ودعم السياسات التي تؤيد إسرائيل . وقد تولى اللوبي اليهودي هناك مساعدة كنيسة الأحد على تشكيل امبراطورية دعائية تمتلك عشرات الأقنية التلفزيونية والمحطات الإذاعية والخطوط التلفونية ودور النشر وغيره .

وقبل ذلك وبعده تنتج جهات صهيونية معينة مئات الأفلام السينمائية التي تعمل على تشويه صورة العرب والمسلمين منذ وقت بعيد بتصويرهم كتجار مخدرات وأسلحة وصناع جريمة . أما بعد الحادي عشر من سبتمبر فأصبح مصطلح الإرهاب الذي تبنته إدارة المحافظين الجدد (الإنجيليين البروتستانت أتباع كنيسة الأحد) وألصقته بالعرب وبالمسلمين سيلا لا ينقطع من أعمال الإعلام التي تواصل رسالة الاستعداء على الفلسطينيين والعرب والمسلمين لصالح إسرائيل . إنها دائرة جهنمية من الإثارة . وكلما هدأت ألقموها مزيدا من الوقود .

واستطاع العقل الصهيوني المتنفذ في الولايات المتحدة خاصة وفي العالم الغربي المتأثر بها عامة أن يجعل من جملة الوقود الذي يستعان به في حملة الدعاية الجبارة ضد العرب والمسلمين مسألة الإدماج بكيفية مدهشة بين معاداة السامية . وهي إنتاج غربي خالص . وبين جهاد شعب فلسطين ومقاومته الباسلة . وقد أخفيت حقيقة القضية الفلسطينية والمقاومة الفلسطينية عن الأنظار والأفهام واستخدم التقدم التكنولوجي الحديث استخداما هائلا ضد الحقوق الفلسطينية بل وضد منطقتنا بأسرها . ونوشك

مع غياب شمس كل يوم أن نخسر مزيدا من الأفراد والجماعات في الغرب تحت وطأة ضراوة هذه الحملات وشدة جبروتها .

ملاحظات على الصورة :

هناك إذن معركة مستمرة موضوعها التجني على الحقيقة وتشويه صورة العرب والمسلمين . وغايتها البعيدة المدى استمرار إسرائيل في كسب الغرب إلى صفها وتسخير طاقاته إلى جانبها بما يعنيه الغرب من طاقات وإمكانات ووزن في السياسة العالمية وفي الهيئات الدولية وإضافة ذلك كله إلى أرصدة إسرائيل في الصراع .

والغريب المؤسف أن تنجح إسرائيل والأعداء الموالون لها في مسعاهم العدائي الظالم ضد العرب والمسلمين على الرغم من مفارقتين مدهشتين الأولى أن الموالين لإسرائيل المعادين لنا يدينون للعرب والمسلمين دينا فاحشا في اعتمادهم على الطاقة التي يستولون عليها من آبار المنطقة . كما يرتكن نظامهم المالي والمصرفي من ناحية أخرى على البترودولار الذي تراكمه الودائع العربية في بنوكهم . وتمام هذه المفارقة المدهشة أن إسرائيل تعتمد في حياتها وفي اقتصادها وفي أسلحتها أيضا اعتمادا شبه كامل على المعونات الأمريكية وعلى العلاقات التفضيلية القائمة مع الاتحاد الأوروبي . أما المفارقة المدهشة الثانية فهي أن الحق والعدل والإنصاف هو في جانبنا وأن التزوير والتمويه والظلم في جانب أعدائنا ومع ذلك فإن صوتهم أعلى من صوتنا وحجتهم أقوى من حجتنا لدى الغربيين . وتمام هذه المفارقة المدهشة أيضا أن تعداد العرب والمسلمين في تلك البلاد أكبر من تعداد أنصار إسرائيل .

إن هاتين المفارقتين تؤكدان لنا أن هناك قصورا في جانبنا يمنع استفادتنا . على الأقل . من ديننا الكبير في أعناق الغربيين ، وقصورا في جانبنا من حيث تذكيرهم . وهم أهل مصالح وحسابات مالية . بأن إسرائيل لم تكن في الماضي ولن تكون في الحاضر إلا عبئا على كواهل دافعي الضرائب الغربيين وعلى سمعة الغرب في منطقتنا بوجه عام .

ناهيك عن أن سطوع الحق والعدل في قضيتنا ، وأن هناك أصدقاء وأنصارا للحق والعدل بحكم الفطرة التي فطر الله الناس عليها وشاءت إرادته أن لا يخلو العالم من هؤلاء الأنصار والأصدقاء مهما خيم الظلام هي أمور مشجعة لمن أراد أن يكون حاضرا في المشهد .

والخلاصة أننا غائبون عن تلك المعركة وهي تدور ضدنا ، وأن هذا الغياب خطأ جسيم يؤدي إلى خسارة متراكمة .

لم تتحرك جهة عربية أو إسلامية ذات شأن للعمل والتأثير في ساحة الرأي العام الغربي بطريقة تتناسب مع أهمية الموضوع ووفق مخطط مدروس دائم بعيد المدى . وربما استجابت بعض الجهات أحيانا لاتصالات قامت بها أوساط نشطة في بعض الجاليات العربية المهاجرة ، فمنحتها تبرعا لمرة واحدة أو لمرات معدودة على سبيل الإحسان واللباقة ، بينما الأمر يتطلب شيئا آخر ينطلق من فهم الخطورة التي يمثلها تفرد إسرائيل وأنصارها بتلك الساحة ، ونجاحها في إنفاذ برامجها التي لا تكتفي بإبراز صورة إسرائيل على أفضل ما يحب جمهور كل بلد من البلدان في الولايات المتحدة وأوروبا ، وإنما تعمل على إبراز صورة العرب والمسلمين على أسوأ ما يكره جمهور كل بلد . ولا تستثني معركة التشويه والقدح والذم حتى البلدان والأنظمة العربية التي تصنف عادة بوصفها موالية للولايات المتحدة . لقد

عملت إسرائيل وما زالت تعمل عبر منظمات اللوبي الأمريكية والأوروبية اليهودية من أجل قلب حقائق الأمور في منطقتنا رأسا على عقب .

نحن جميعا على علم بأن أعداد المواطنين العرب والمسلمين في الولايات المتحدة مثلا يفوق أعداد اليهود . ونحن على علم بأن الجاليات من أصل مغاربي في أوروبا . وخصوصا في فرنسا وهولندا وبلجيكا . بلغت بدورها عددا لا يستهان به بالنسبة لمجموع السكان . ونحن على علم بأن عددا ضخما من الفلسطينيين الذين عملوا سابقا في الخليج وكانت حرب الخليج عنصرا طاردا لهم ، وكذا عددا كبيرا من الفلسطينيين المقيمين في لبنان منذ عام ١٩٤٨ وكانت الحروب في لبنان عنصرا طاردا لهم قد استقروا في بعض بلدان أوروبا لا سيما بلدان اسكندينافيا . ونحن على علم أصلا بأن الأتراك المسلمين المقيمين في ألمانيا يعدون إحدى أكبر الجاليات هناك .. الخ .

ليست هناك جهة مركزية ولا خطة مركزية للاستفادة من جهود النشطاء الذين أظهروا مبادرات تدعو للإعجاب نصرة لقضايا أمتهم .

هل لنا إلى الغرب سبيل ؟

استطاع الغرب أن يتقدم في العديد من مناحي الحياة المادية والعلمية . وسيطرت الولايات المتحدة خاصة على ثروات المنطقة ومواردها الطبيعية وأسواقها . وألزمت أوروبا بالخطوط الأساسية لسياساتها في الشرق الأوسط .

غير أن الغرب ليس غربا واحدا . فأوروبا التي توحدت في إطار الاتحاد الأوروبي بقصد ضمان مصالحها أمام القطبين الكبيرين أمريكا والاتحاد السوفييتي بعد الحرب العالمية الثانية ، وبقصد الحيلولة دون ابتلاع أمريكا البلدان الأوروبية واحدة بعد واحدة (كما كان الجنرال الفرنسي شارل ديجول

يخشى) أوروبا هذه تبقى ذات مصالح تختلف عن مصالح غيرها . وتظل مخاوفها على استقلالها واردة .

ومهما كان رأينا في الغرب عموما فإننا نعرف حقيقتين على درجة كبيرة من الأولوية والأهمية بالنسبة لمنطقتنا :

أولى هاتين الحقيقتين أن العلاقة مع الغرب حاصلة بحكم الضرورة التي تجسدها عقود التجارة البينية إذ تبيعهم المنطقة صادرات خاما وتشتري منهم واردات مصنعة .

أما الحقيقة الثانية فهي أن الغرب مفتوح أمام الناس والأفكار وبالإمكان التحاور معه ومخاطبة عقله ووجدانه ومصالحه ، وليس الطريق إلى تغيير مواقفه طريقا مسدودا .

ولو أن المنطقة تحقق في ذاتها قدرا حقيقيا من التضامن ووحدة الإرادة السياسية لما عجزت عن تصحيح العلاقة التجارية والاقتصادية سواء فيما يتعلق بعقود الاستيراد والتصدير والشركات النفطية أو فيما يتعلق بالميزان التجاري لصالح زيادة صادراتنا وتقليل وارداتنا منهم ..

ولو أن المنطقة تقف موقفا جديا من قضاياها الوطنية والقومية وتستفيد من الإمكانات البشرية والمادية المتاحة لها لما صعب عليها أن تؤثر في الرأي العام في الغرب باستخدام وسائل التأثير التي يعرفها الجميع .

والخلاصة أن الضرورة والمصلحة تقتضي أن لا نتغيب عن المعركة التي فتحها أعداؤنا ضدنا في الغرب ، وعن الواجب الذي يستنهضنا للحضور في الحوار العام الجاري بصورة دائمة في عصر العولمة والتأثير والتأثر المتبادلين .

إن حوارنا مع الغرب ضرورة لنا قبل أن يكون ضرورة للغرب . وإهمالنا هذه المسألة معناه أننا نخلي موقعا استراتيجيا فائق الأهمية لصالح عدونا .

ونحن محتاجون لأن نعرف كيف نتحاور مع الآخرين وكيف نكسبهم إلى صفنا . ولا يتحقق ذلك بالآراء القطعية المسبقة ضد هؤلاء الآخرين استنادا إلى الخلفية التاريخية التي تحدثنا عنها وإن كنا على حق . فالآراء الغاضبة المنفعلة والتي تدعو إلى العزلة لا تفعل أكثر من عزلنا نحن ومن تحشيد جبهة ضدنا في حين أن ذلك ليس من مصلحتنا .

إن العدالة في قضايانا ساطعة . وعلينا أن لا نكون كما قال بعضهم : ((أسوأ محامين لأعدل قضية)) .

وأول ما نتذكره في هذا المقام هو الحديث الشريف : (أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم) . ففهم العقل الغربي وأخذ العناصر التي تشكله والمؤثرات التي تؤثر فيه بالحسبان شرط أساسي لمخاطبة الغرب .

لقد عمدت الدعايات الصهيونية إلى تركيز أطروحاتها على نقاط مدروسة ذات تأثير تاريخي وعقيدي ونفسي وسياسي على النفسية الغربية .

تاريخيا عزفوا على وتر الطغيان الذي اتصفت به النازية العنصرية وجعلوا أنفسهم الضحايا الوحيدين تقريبا لما دعوه المحرقة ، وجعلوا المحرقة عقيدة اجتماعية عند الأنظمة السياسية في أوروبا وأمريكا .

وعقيديا بحثوا في الديانة المسيحية حتى وجدوا النقطة التي تجمع بين الأمنية الروحية في عودة المسيح لدى المسيحيين وبين اجتماع اليهود في فلسطين .

ونفسيا وثقافيا أحكموا صلاتهم بالكتاب والفنانين في الغرب وجعلوا صورتهم أقرب ألى صورة الغرب إنسانيا واجتماعيا وثقافيا بينما العرب والمسلمون أقرب إلى البرابرة والمتوحشين وأعداء الديمقراطية .

وسياسيا وضعوا أنفسهم في خدمة الأهداف السياسية والاقتصادية للاحتكارات الأجنبية والمصالح التجارية في المنطقة .

وتشير هذه الأمور إلى جوانب من تفوقهم في وضع الأسس الإعلامية والدعائية بينما يتبقى من نواحي التفوق ما يملكون أيضا من اللأدوات والوسائل والمؤسسات الإعلامية والصحافية المتغلغلة في البلدان المختلفة.
وعلى الرغم من ذلك كله فإن في وسعنا أن نبدأ ولو متأخرين وأن نستنفر الجاليات من أصل عربي وإسلامي في مختلف بلدان الاغتراب ونتشاور جميعا في الغايات والوسائل التي يمكن حشدها لعلاقات أفضل وأصح مع الغرب .

وبالله التوفيق .